الموقع الرسمي للأستاذ
الدكتور محمد الناصري

مركزية الإصلاح التربوي في تقدم الأمم وازدهارها

www.mohammedennassiri.ma

- مركزية الإصلاح التربوي في تقدم الأمم وازدهارها

- **الدكتور محمد الناصري، أستاذ الفكر الإسلامي، جامعة السلطان مولاي سليمان، المغرب.**

موضوع الإصلاح موضوع متواتر ومتردد خاصة في السنوات الأخيرة، وذلك في مختلف وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية، وكذا في المنتديات الفكرية والمحافل السياسية، فهو دائم التكرار والمناقشة وهو مطروح على الجميع.

وفي اعتقادنا أن هذا الصخب المحيط بمقولات الإصلاح له ما يبرره، بالنظر إلى واقع الدول العربية الإسلامية، التي تعيش ومنذ زمن بعيد أزمة وجود حضاري؛ تشهد على ذلك الإخفاقات المتلاحقة والمشكلات المتفاقمة والانهيارات المفاجئة، فالأمة انحسر شهودها الحضاري وتوقفت عن أداء رسالتها في الشهادة على الناس، والقيادة لهم، فأصبح موقعها خارج السياق التاريخي.

الإجماع الحاصل حول الإصلاح وضرورته في زمننا المعاصر، مرده فشل جل محاولات الإصلاح التي عرفها تاريخ الأمة الطويل باستثناء القليل منها. وقد نبه العديد من الباحثين على فشل الإصلاح في العالم العربي والإسلامي، ويعزون ذلك إلى غياب الفهم المنهجي للإصلاح[1].

ولعل هذا الفشل المتكرر في محاولات الإصلاح هو المسؤول عن انفعال الصرخات وتعالي الصخب وكثرة اللغط حول الإصلاح. ولا يفهم في خضم كل ذلك الغياب الملحوظ لموضوع نعتقد أنه أساسيا في أي إصلاح وهو الإصلاح التربوي التعليمي.

---

[1] انظر على سبيل المثال لا الحصر:

عبد الله العروي، مفهوم الدولة، المركز الثقافي العربي، البيضاء، ط، الثامنة، 2006م.

محمد عابد الجابري، في نقد الحاجة إلى الإصلاح، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، طن الأولى، 2005م.

طه جابر العلواني، أبعاد غائبة في فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة، دار السلام، القاهرة، ط، الأولى، 1425هـ/2005م.

سعيد شبار، الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، دراسة في الأسس المرجعية والمنهجية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط،الأولى، 2007م.

الإصلاح التربوي[2] ... أساس القدرة ونقطة الانطلاق

نعتقد أن أزمة الأمة فكرية جوهرها منهجي، تندرج تحتها سائر الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية...ولما كان الأمر كذلك؛ فإن سبيل المسلمين للخروج من هذه الأزمة، واسترداد دورهم الفاعل وإشعاعهم الحضاري وإحداث التغيير المأمول، والإقلاع من جديد لا يتحقق إلا بالإصلاح التربوي / التعليمي الذي يعد المبتدأ والمنتهى.

فنهوض الأمم وسقوطها وتقدمها وتراجعها منوط بالتربية والتعليم فيها، فإن الأمة إذا نجحت في برامجها التربوية حققت أهدافها، وإن أخفقت تراجعت عن أهدافها. والأمة الإسلامية نموذج حي، شاهد على صدق ذلك، فبالرغم من كثرة أبنائها، ووفرة مواردها، وتميز مواقعها، وغنى تاريخها، وكمال دينها، فإنها في درك من السوء يستدر أحيانا شفقة خصومها، وعطف أعدائها. والسبب الأساس وراء ذلك انهيار دعائم نظم التربية فيها وتذبذبها، وعدم وضوحها، فلم تعد الأمة قادرة على تكوين الإنسان الذي يقوم بمهام العمران لا في قابلياته، ولا في دوافعه، ولا في استعداداته[3].

وعليه فإن نقطة الانطلاق في الإصلاح والنهوض والتغيير للواقع، إنما تبدأ من محاضن التربية والتعليم بمفهومها الواسع، وتنتهي في محاضن التربية والتعليم، مهما حاولنا التأكيد واستثمار الأهمية للمواقع الأخرى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ... وغيرها. فالتربية والتعليم هي السبيل الأوحد للإصلاح، والبناء والنهوض والتطوير والتغيير، وإقامة مجتمعات المستقبل، وهي الرحم التي تتخلق فيه وتنمو وتتغذى وتمتد وتتوجه أنهار الحياة المتدفقة والممتدة.

---

[2] إن الإصلاح التربوي المنشود لا يروم إلى نظام تعليمي يقوم على التعليم الديني بالمفهوم الشائع ولكن يروم هذا الإصلاح إلى نظام تعليمي يؤمن بتكامل الوحي الكلي والعقل الجزئي في بناء المعرفة الإنسانية ومعرفة السنن والفطرة والطبائع في الكون والكائنات ... مع سلامة التوجه وسلامة الغاية وسلامة الفلسفة التي تتوخاها أبحاث العلوم واهتماماتها وتطبيقاتها وإبداعاتها. عبد الحميد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، ط، الأولى، 1412هـ/1991م، ص 214 بتصرف يسير.

[3] كلمة التحرير: مجلة إسلامية المعرفة، التربية البعد الحاضر الغائب، س، الثامنة ، ع، التاسع والأربعون، 1423هـ/2002م، ص6.

لذلك فقد لا يكون غريبا ولا مستغربا أن يبدأ الوحي، أو تبدأ الخطوات الأولى للرسالة بقوله تعالى "**اقرأ**" ... كمدخل حضاري ومفتاح ثقافي ووسيلة تربوية ومنطلق علمي، لتحقيق التوجه دائما إلى الكمال والاكتمال لرحلة الحياة ... فبداية الوحي بـ "**اقرأ**" ومن تم تحديد مقصد القراءة وهدفها ووجهتها باسم الله الذي خلق، وباسم الرب الأكرم، له دلالته الواضحة في تحديد نقطة الانطلاق لكل إصلاح وبناء وتغيير.

ومهما حاولنا وتوهمنا أن النهوض والتغيير والإصلاح يمكن أن يتم خارج مواقع التعليم، فإن التاريخ والواقع والتجربة الذاتية والعالمية. تؤكد أن التربية والتعليم هي –كما أسلفنا- السبيل الأوحد، إلى درجة يمكن أن نقول معها بدون أدنى تحفظ: إن التربية هي التنمية بكل أبعادها، وأي مفهوم للتنمية بعيد عن هذا فهو مفهوم جزئي وعاجز عن تحقيق الهدف. لذلك فإن أية تنمية لا يمكن أن تتم خارج رحم التربية ومناخها، وإن المدارس والمعاهد العلمية والتربوية، هي طريق القادة السياسيين والاقتصاديين والاجتماعيين والتربويين والإعلاميين والعسكريين وسائر المواقع الأخرى[4].

ومن ثم فإنه لا أمل في إعادة بناء الأمة وتجديد ما بلي من طاقاتها بدون إعادة النظر في فلسفتها التربوية ورؤيتها الكلية ونظرياتها في إعداد إنسانها عقليا ونفسيا لتعود إليه قابلياته وقدراته ودوافعه وفاعليته الحضارية والعمرانية، ويغادر مستنقع الغثائية[5].

[4] محمد عبيد حسنة، من مقدمة كتاب، قطب مصطفى سانو، النظم التعليمية الوافدة في إفريقيا قراءة في البديل الحضاري، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف، قطر، ط، الأولى، محرم 1419هـ، ص14 وما بعدها.

[5] كلمة التحرير، التربية البعد الحاضر الغائب، م.س، ص6.

وقفـة ... لابـد منهـا

الحديث عن الإصلاح التعليمي في عالمنا العربي والإسلامي يثير الحيرة؛ فبدلا من أن يقود هذا الإصلاح إلى وضوح الطريق يقود إلى نتائج عكسيـة كارثية[6]، وذلك راجع بالأساس إلى عدم اهتمام القائمين على الإصلاح بقضـايا المنهج، والاكتفاء بالشعارات الجوفاء دون خطط مدروسة قادرة على صياغة مناهج وطرائق تمكن من تحويل تعاليم الوحي لتصبح مكونات أساسية في فكر جميع فئات المجتمع وثقافتهم وأخلاقهم. وعليه فـ"إن إصلاح نظام التعليم لا يتأتى بالاحتجاج على الواقع--وإن كان الأصل أن الإحساس بالأزمة يقود إلى إدراك أبعادها، ويبصر سبيل العلاج- ولا يتأتى بمجرد الإدانة للنتائج، والمقارنة مع الآخر ولا باستيراد أشياء الآخر وفلسفته التربوية، ولا بالاغتراف من أوعية الآخر، ولا بترجمة سياسته التربوية والتعليمية، ولا بالتأنق في العبارات وحسن رصفها، ولا حتى الاحتماء بالتاريخ التعليمي لفترات التألق الثقافي والإنجاز الحضاري، لتجاوز مركب النقص، وإنما يتأتى بالدراسة الميدانية، طبقا لأدوات البحث الحديثة، وتحديد موطن الخلل، ودراسة أسبابه ووضع خطة متأنية للمعالجة ضمن زمن كاف، وعدم الاستعجال للنتائج، وتجاهل سنة الأجل، لأن التربية والتعليم من الصناعات الثقيلة البطيئة والمديدة، التي

---

[6] فالنتائج تبقى دون التطلعات ودون الجهود المبذولة ونترك "الأرقام تتكلم. تقول الأرقام إن عدد المتخرجين في الجامعات العربية، بلغ عشرة ملايين خريج عام 1997، وكانت نسبة المتخصصين في العلوم من مجمل هؤلاء لا تتجاوز 29 %، أما نسبة الإنفاق الإجمالي على التعليم في الأقطار العربية فهي لا تتجاوز 1 % من ميزانياتها، وفي عام 1996، كان هناك 60 مليون عربي لا يجدون سبيلا للمعرفة، و9 ملايين طفل عربي خارج التعليم الابتدائي، و15 مليون شاب عربي خارج التعليم الثانوي، و60% من النساء العربيات لا يجدن القراءة والكتابة، و44% من الرجال لا يجيدون القراءة والكتابة، وقدرت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، أن عدد الأميين في العالم العربي ضخم، ويصل إلى سبعين مليون شخص في هذا العام 2005، وقد ورد هذا الرقم في التقرير الذي قدم في اجتماع مجلسها التنفيذي الأخير، وأشار التقرير أيضا إلى أن عدد الإناث في الرقم المذكور، يقترب من ضعف عدد الذكور، وكانت منظمة "اليونيسف" قد أعلنت في تقرير مشترك مع جامعة الدول العربية صدر في 11 أبريل 2005 أن "هناك أكثر من عشرة ملايين طفل في العالم العربي خارج إطار النظام المدرسي" وهنا تجب الإشارة إلى أن الأطفال، يشكلون ما يقرب نصف عدد السكان في بعض دول العالم العربي ... وأضاف التقرير المشترك، أن هناك أكثر من نصف النساء في العالم العربي يجهلن القراءة والكتابة، الامر الذي يحول بينهن وبين الوصول إلى مصادر المعرفة والمعرفة التي يمكن أن تؤدي إلى تحسين حياتهن وحياة أطفالهن، ويحول دون الحصول على الخدمات الصحية الرئيسية والخدمات الاجتماعية= =المختلفة". مجلة العربي، الكويت، ع 560 يوليوز 2005 م، ص 10-11. والبلدان العربية ليست حالة شاذة فهي تشترك في ذلك مع بقية دول العالم الإسلامي.

قد لا تتحصل نتائجها في جيل واحد، حيث لابد أن تدرك طبيعتها النوعية التي لا ينفع معها الاستعجال، لأن الاستعجال قد يؤدي إلى البتر والارتكاس، بدل أن يؤدي إلى النمو والترقي.

فالعملية التربوية والتعليمية لها خصوصيتها في كون أداتها الإنسان، وموضوعها الإنسان، في الوقت ذاته، لذلك أي خطأ فيها يشكل ألغاما اجتماعية يمكن أن تؤدي إلى نتائج خطيرة ومدمرة[7].

الإصلاح التربوي ... إمكان ذاتي

إن الإصلاح التربوي إمكان ذاتي ينطلق من الذات بمراعاة قيمها وهويتها هادفا إلى ترسيخها وضمان قوتها مما يمكن من توحيد أفراد الأمة روحا وفكرا وسلوكا ومصيرا، غير أنه وفي كثير من الأحيان قد يكون ذلك عن حسن نية، فنستورد المناهج والبرامج والسياسات التعليمية والتربوية التي أعدت لغير مجتمعاتنا، وضمن مرجعية غير مرجعيتنا، فتزداد المشكلة تأزما، والحال خبالا، ويزداد الشرخ بين أفراد الأمة، ويكبر التصدع والانشطار الثقافي، وتمزيق رقعة التفكير، لأن هذه المستوردات لا مشروعية لها في قمينا وميزاننا الثقافي ونظامنا الأخلاقي، وبكلمة مختصرة : فإن هذه النظريات التربوية والنظم المعرفية المستوردة لا مشروعية لها في إطار قيم الأمة وتاريخها وثقافتها، ولا بديل لنا ولا منفذ إلا بتطوير نظريتنا التربوية الذاتية والامتداد بها، ورسم سياستنا التربوية، وتحديد منطلقاتها، وتوضيح أهدافها، واكتشاف أدواتها من خلال قيمنا في الكتاب والسنة، ومواريتنا الثقافية وتقاليدنا الاجتماعية[8].

ولعلنا نقول: إن المشكلة الأساس التي يعاني منها النظام التعليمي أو العملية التربوية والتعليمية بشكل عام في العالم الإسلامي، هي أنها في معظمها قائمة على التناقض في المرجعيات، والتشاكس في فلسفة التعليم وغموض أهدافه، الأمر الذي يؤدي إلى التعثر وتمزيق رقعة التفكير، واضطراب رؤية الحياة، وكيفية التعامل

---

[7] عمر عبيد حسنة، من مقدمة كتاب: قطب مصطفى سانو، م.س، ص18-19.

[8] عمر عبيد حسنة، من مقدمة كتاب: قطب مصطفى سانو، م.س، 23.

معها ... وبدل أن يكون نظام التعليم وسياسته سبيلا للترقي والتفكير والنمو، يصبح محلا للحيرة والارتباك والتلقين والعطالة وبعثرة المواهب...[9]

وعليه فـأهم المحاذير اعتبار الإصلاح والتغيير مجرد تطلعات وتنظيمات وترتيبات هيكلية وإدارية تصدر بها الأوامر وتلوي من أجلها الأذرع، وليست قضية فكرية عقدية تربوية تستقر في النفوس والضمائر وتجري في الأمة مجرى الدم وتحفر حفر الحجر، ومن تم فأي إصلاح تربوي تعليمي يجب أن ينطلق من الذات لحفاظ على قيم ومبادئ وعقائد الذات، والعمل على ترسيخها في ضمائر الناشئة منذ نعومة أظافرهم فلا يرون إلا بها ولا يتصرفون إلا على أساسها وتصبح ثوابتها لغة أولى لوجدانهم وتصوراتهم ومنطلقات فكرهم.

لذلك يجب أن تتضافر جهود الكل للعمل على بناء منهج تربوي متكامل سليم المنهج نقي الثقافة يستدرك الأبعاد التي أهملت في تربية النشء المسلم، التي يجب أن تنبني على الالتزام بمبادئ الإسلام وقيمه وعقائده، الدافعة نحو الإبداع والإعمار[10].

ولاشك أن العملية التعليمية والتربوية عملية متراكبة وشاملة، وتخص الأمة جميعا، بأجيالها المتعاقبة وقيمها المتوارثة، وخبراتها المتراكمة، لذلك لا تجوز أن تقتصر مسؤوليتها وبناؤها على مجموعة واحدة، حتى ولو كانت من أهل الاختصاص في التربية والتعليم، وإنما لابد أن تشارك في بنائها وتقويمها ومراجعتها، مجموعة تخصصات نفسية، واجتماعية وأخلاقية وإعلامية وثقافية وتاريخية، بل وأكثر من ذلك إنها تخص كل أسرة وكل مؤسسة، وكل موقع من مواقع الحياة المختلفة، لذلك لابد أن تأتي السياسة التعليمية ثمرة لرؤية جماعية لكل فيها نصيب، فهي مسؤولية أمة، وهي مسؤولية عامة وتضامنية[11].

---

9 نفسه، ص31.

10 عبد الحميد أبو سليمان، العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الاسلامي، بين المبدأ والخيار رؤية إسلامية، دار السلام، القاهرة، ط، الأولى، 1423هـ/2002م، ص 81 بتصرف.

11 عمر عبيد حسنة، من مقدمة كتاب: قطب مصطفى سانو، م.س، ص21 .

سبيـل ... الإصـلاح التربوي

إننا إذا أردنا أن نقوم بإصلاح تربوي حقيقي فلابد لنا من إعادة النظر في رؤيتنا الإنسانية الحضارية بحيث تسعيد الأمة ويستعيد أبناؤها الجانب العام والجماعي في التضامن والتناصر بين أبناء الأمة في الأهل والجوار والوطن والأمة والإنسانية، وأن نعيد إلى حياة أمتنا وتنظيماتها ومؤسساتها الاجتماعية على كافة المستويات توازن الأبعاد الجماعية والفردية، كما نعيد إليها إيجابية الاستخلاف وروح جهاد البذل والإتقان والإحسان.

على مفكري الأمة وعلمائها أن يعيدوا النظر في منهجية فكر الأمة بحيث نعيد التوازن فيما بين دور النص للاستجابة للهداية الإلهية والإفادة من إيجابيات مفردات التراث وعبر التاريخ ودروسه، وبين دور العقل والمعرفة الإنسانية في معرفة الواقع وفهم العلل والطبائع الكونية في الأنفس والمجتمعات والكائنات لتسخيرها، وتنزيل مواقع الهدي الإلهي منها موقعها الصحيح في ترشيد الغايات والقيم والمفاهيم والأنظمة والممارسات، وتفعيل طاقات الإيمان ووازع الضمير وحس الجهاد والمسؤولية في أداء الفرد والمجتمع.

كما يجب على مفكري الأمة وعلمائها أن يعيدوا النظر في منهجية البحث والدرس والنظر العلمي والمدرسي لنتخطى المنهجية الجزئية النصية إلى المنهجية الكلية التحليلية المنضبطة التي تضع المفردات وأدوات النظر الجزئية في موضعها الصحيح بحيث يحيط الناظر بكليات الأوضاع والحالات والقضايا والطبائع، ويضع مفردات مكوناتها في موضعها الصحيح، وبأوزانها الصحيحة في سياقها الزماني والمكاني المناسب.

لابد للأمة من استعادة رؤيتها التوحيدية الكونية القرآنية وإصلاح مناهج تفكيرها وتربيتها للتخلص من أمراض السلبية والاتكالية ومن قصور الأداء، والتخلص من أمراض الفردية والتمزق والصراع، لتنتهي

الأمة إلى نور الهداية، وعز العطاء، وقوة الوحدة والعلم والابداع. لابد لنا من تنقية ثقافتنا ومكوناتها من الضلالات والخرافات والشعوذة والخزعبلات..[12]

معالم الإصلاح التربوي ... للنهوض الحضاري

إن ما سبق التأكيد على ضرورة تحقيقه كسبيل للإصلاح، لا يكون إلا بإصلاح المنهج الفكري الإسلامي، وذلك ببلورة منهاج بنائي للفكر والعلوم الإسلامية، قادر على الاضطلاع بمهمات الإصلاح والتجديد والإحياء، وإطلاق القدرات في الاجتهاد والإبداع ... منهاج كلي مستوعب تندرج تحته فروع منهجية بحسب الحقول العلمية، وهذا المنهاج ليس آلة محايدة، يقوم بوظائفه بمعزل عن أطره المرجعية، بل الأصل فيه أن يعكس رؤية تتجلى في جميع فروعه –فالفلسفة المادية الاستهلاكية الموجهة للغرب الآن والتي لا حضور فيها لعالم القيم والتراحم والأخلاق والمثل، تنعكس حتى على أدق العلوم التجريبية فتجلعها متحيزة ماديا لا إنسانيا-.

ومن معالم هذا المنهاج الأساسية:

1. أن ينطلق من مصادر المعرفة في تكاملها (الوحي – العقل – الواقع) حيث يتكامل عالم الغيب مع عالم الشهادة، وحيث تقرأ آيات الكون كما تقرأ آيات النص، فلا تطغى نزعة نصية على أخرى عقلية أو هذه على نزعة واقعية أو العكس[13].

---

12 عبد الحميد أبو سليمان، الإصلاح التربوي، العلاقة بين الرؤية الكونية والمنهجية المعرفية والأداء التربوي، مجلة إسلامية المعرفة، السنة 8، ع29، صيف 2002، ص168-169.

13 "والواقع أن المعرفة الإسلامية لا يمكنها أن تقوم إلا على (أصلي) النقل والعقل معا ويضاف إليهما أصل الواقع، إذ لا يمكن للنقل (الوحي) أن يقوم به الإنسان تحقيقا لأمر التدين، إلا من خلال فهم واجتهاد يمارسه العقل، وتنزيل وعمل على أرض الواقع، وكلاهما يحتاج إلى إنشاء وبلورة معرفة وفقه خاص به مسترشدا بهداية الوحي، وإلا تحول إلى نزاعات عقلانية وواقعية مكتفية بذاتها على غرار النموذج الغربي، فوحي بدون عقل نصوص جامدة وكلاهما بدون واقع تجريد وواقع وعقل من غير وحي تيه وضلال فكري وحضاري وديني. وهل نزل الوحي للإنسان إلا ليعمل به ويتدين ويتدبر ويتفكر ويتعقل ؟. سعيد شبار، الإطار المنهجي للفكر الإسلامي، م. قضايا إسلامية معاصرة، بيروت، س، التاسعة ع.الثلاثون، شتاء 2005م، 1425هـ، ص101. والقرآن الكريم في أول آية نزلت منه يأمر بالجمع بين عالم الغيب وعالم الشهادة "اقْرَأْ بِاسْمِ

2. أن يستصحب قيم الهداية والرحمة واستشعار مسؤولية الاستخلاف والتعمير وحمل الأمانة والشهادة على الناس، مما يجعل المعرفة المنتجة أو العلوم المستخلصة، شعارا للهداية والأمن والسلم والحوار والجدال بالتي هي أحسن من أجل قيم عليا تنفي عنها الأغراض والأهواء.

3. أن ينبني على خصائص: التوحيدية، والعالمية، والوسطية، والإنسانية والواقعية، تنفي عنه أشكال الانغلاق والتحيز والغلو والتشدد، والإفراط والتفريط، والصورية والتجريد ... وما إليها.

رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" (سورة العلق، الآيات 1-5). "فنحن مأمورون بقراءتين يجب علنيا أن نجمع بينهما لكتابين أنزل الله تعالى أحدهما، وخلق الثاني، الكتاب الأول : هو القرآن الكريم المكنون المجيد، الذي فيه تفصيل كل شيء، والكتاب الثاني هو الكون والخلق الذي ما فرط الله فيه من شيء، وقراءة أي منهما بعيدا عن الآخر لا تغني عن الإنسان شيئا ولا تكفيه لتحقيق وإيجاد المعرفة الحضارية الشاملة التي تدون وتسطر ويجري تناقلها فيتمكن من فهمها والإفصاح عنها والإبانة عن قضاياها وتداولها بين أمم الأرض، ليتمكن من القيام بمهمة الاستخلاف وأداء الأمانة وتحقيق العمران الذي خلق الجنس البشري لتحقيقه، والدخول في السلم كافة، وظهور الهدى ودين الحق بينهم لتشرق الأرض بنور ربها، وتتحقق غاية مشيئة الحق سبحانه من الخلق في قيامه كله بعبادة الله ... وحين يظهر أي اضطراب في الحياة البشرية في أي مجال من مجالاتها فإن ذلك يكون مؤشرا على اختلال منهج القراءة أو اضطرابه بالاقتصار على إحدى القراءتين أو بعدم الجمع بينهما أو الطغيان في الميزان الذي وضعه – تعالى- لوزن الأمور وضبطها، أو الانحراف عن المنهج، ولا يمكن في هذه الحالة تصحيح الأوضاع إلا بإعادة الأمور إلى نصابها، والجمع بين القراءتين فكل من القراءتين ركن معرفي، ومصدر إنساني لا يمكن تجاوزه أو التساهل في قراءته، ويستحيل قيام عمران رشيد، وحضارة سديدة بدون جمعهما، وضمهما معا – إلى درجة الدمج التام، لأن من تجاوز القراءة الأولى (أي قراءة الوحي) واستغرق في القراءة الثانية (أي قراءة الكون) فقد الصلة بخالق الكون، وفقد الإحساس بالخلافة فيه، والشعور بأنه مؤتمن عليه ومحاسب على ما يصنعه فيه، ومثاب على العمران ومسؤول ومعاقب على التخريب والإفساد، وسيطرة عليه مشاعر التفرد والغرور والاستبداد المؤدي للطغيان وتجاهل الغيب، وانطلق في بناء فلسفة وضعية عوراء قاصرة لا تمكنه من المعرفة الحقيقية، بل تجعله – في أحسن الأحوال- من أولئك الذين {**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**} (سورة الروم، الاية 7). أما إهمال القراءة الثانية، قراءة الوجود والكون مع تجاوز جمعها وضمها إلى القراءة الأولى في الوحي أو الاقتصار على قراءة الوحي منفردا، منقطعا منبتا عن الوجود، فإن ذلك يؤدي إلى خلل قد يكون منه النفور من الدنيا ... بشكل قد يشل طاقات الإنسان العمرانية والحضارية ويعطله عن آداء مهام الخلافة والأمانة والعمران، ويحول بينه وبين التمتع بنعمة التسخير ويعطل فكره وينقص من قيمة فعله بل قد يلغي فعله ... إذن لابد من الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الوجود والدمج بينهما لئلا يقع الإنسان في أي من الطرفين الذميمين". طه جابر العلواني، إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط، الأولى، 1417هـ/1996م، ص 13-16.

إن الجمع بين القراءتين يمكننا من تجاوز فكرة الثنائية بين العلوم، التي تقوم على الفصل بين العلوم الدينية والدنيوية – علوم الدين وعلوم الدنيا- بناء على الفصل بين الديني والدنيوي، وذلك انطلاقا من المبدأ التوحيدي المقرر في الإسلام والذي يقوم على النظرة إلى العلوم نظرة تكاملية لا تضادية ولا تناقضية.

4.أن تكون له محددات: كختم النبوة والهيمنة والتصديق والوحدة البنائية للنص ... وما إليها مما يحول دون تسرب الخرافات والشوائب والزوائد التاريخية.

ولعل التنزيل الجزئي لمعالم هذا المنهج في مصادره وقيمه وخصائصه ومحدداته على مختلف العلوم والمعارف الإسلامية، من شأنه أن يحدث تغييرات جذرية، وأن يجدد فيها أصولا وفروعا بما يستجيب وتطلعات وتحديات المرحلة الراهنة في نزوعها الكوني العالمي .... وهو في جميع الأحوال دون كونية وعالمية الرسالة[14].

إن هذا المنهج يستقي معالمه من الرؤية الكلية القرآنية المتصفة بالبعد الكلي الشمولي، والحس العام الاجتماعي الإنساني والتوجه الإيجابي العمراني ... ولاتصافه بذلك فإنه السبيل الأصلح لإعادة التوازن بين النص الصحيح والعقل الصريح وبناء منهج تربوي يرفع عن أبناء الأمة سلطة القهر والترهيب لتنطلق طاقاتهم الخيرة وقدراتهم المبدعة في العطاء والبناء الحضاري.

إجمالا، إذا كانت القناعة أن أزمة الأمة فكرية، جوهرها منهجي، وأن سبيل الخروج من هذه الأزمة إصلاح المنظومة التربوية وفق معالم الإصلاح المشار إليها آنفا. وأن هذا العمل يراد له أن يكون تصحيحيا جذريا، لا ترقيعيا شكليا، فلابد أن تستنفر طوائف متعددة بحسب العلوم والتخصصات للبحث في أرجاء الأمة، وأن تبدأ بمدارسة موسعة في المنهاج العام والمناهج الخاصة، حتى إذا تحقق قدر لا بأس به من التوافق، قسمت قطاعات العمل وحددت موضوعاته وفق محطات زمنية مناسبة، وأن تتخلل هذا العمل لقاءات منتظمة للمدارسة، خاصة في الوحدة البنائية وفي النواظم العلمية والمنهجية حفاظا على العقد من الانفراط وتأكدا من صحة المسار في تكامليته وكونيته وإنسانيته وقبل ذلك إسلاميته[15].

---

[14] سعيد شبار، من أجل منهاج تجديدي في الفكر والعلوم الإسلامية، (رؤية منهجية). م.الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط،ع، السابع والعشرون، صفر 1429ه/فبراير2008م، ص76-83.

[15] -نفسه.

نعود -ختاما- فنقول: إنه ولإحداث تغيير جذري في وجدان الأمة، وتحقيق إصلاح بنيوي لأوضاعها، يتوجب على مفكري الأمة وعلمائها ومثقفيها تولية وجوههم شطر الإصلاح التربوي التعليمي لأنه سبيل الإصلاح الوحيد الذي يمكن من إعادة بناء الأمة بناء قويا ويعيد شهودها الحضاري على بقية الأمم، عملا بقوله تعالى: {**فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**} [سورة التوبة، الآية 122] .

ويوم أن يتم إنجاز الإصلاح التربوي وفق المعالم والأسس السابقة الذكر فإنه يحق لنا يومئذ أن نتطلع، ويتطلع معنا العالم إلى حياة مطمئنة سليمة تتحقق فيها كرامة الإنسان مطلق الإنسان.

الموقع الرسمي للأستاذ
الدكتور محمد الناصري

mohammedennassiri.ma | mohammedennassiri@gmail.com

للتواصل